

شكلت واقعة كربلاء حدثاً مديوياً في التاريخ الإسلامي واحتلت مكانتها بل حفرت وجودها في كل كتب التاريخ العربي والإسلامي لما تركته من مآلات ومخرجات عند المسلمين الذي ناهضوا الحكم الأموي والعباسي. لقد استقرت نهضة الإمام الحسين (ع) في الوجدان الشعبي لتعددها إلى الوجدان الانساني، وحفظت الهوية الشيعية عند موالمهم على طول وعرض التاريخ لتوصلها إلى وقتنا الحاضر، وتستمد إلى عمق المستقبل.

فالحركات الاحتجاجية (ثورات العلويين ضد الحكم الأموي) التي ظهرت بعد الواقعة شكلت ظاهرة قوية جداً بسبب مصداقيتها وقدرتها على ربط الإنسان المنتمي إلى مدرسة أهل البيت (ع) بالواقع الاجتماعي والسياسي ربطاً محكماً. وعبرت هذه الممارسات (مناهضة الحكم الجائر) عن حاجات الناس وطموحاتهم وأمالهم. لأن أي ظاهرة أو فكرة لا يمكن قطعها عن جذورها وسياقاتها التاريخية والاجتماعية والاقتصادية التي نشأت عنها وفيها، وتطورت بموجبها وتبلورت في إطارها، وهذا ما عبرت عنه المراسم والطقوس العاشورائية التي استمدت وجودها وشرعيتها من عقيدة الولاء لأهل البيت (ع)، والتي نزلت إلى الوجدان وتجذرت في الذاكرة الشعبية. وبذلك كونت وحدة عقائدية واجتماعية ونفسية قوية يصعب جداً تفكيكها.

المراسم العاشورائية متوارثة من جيل إلى جيل

تعد المراسم العاشورائية مراسم حزن وعزاء، وقد توارثها الشيعة جيلاً بعد جيل، وقد بذل أتباع آل البيت (ع) مجهوداً في سبيل الحفاظ على هذه الشعائر واستمرار ديمومتها، وقاموا أعتى أنظمة الطغيان التي حاولت طمس هذه الطقوس العاشورائية، والتي صارت هوية عقائدية للمذهب الشيعي. وهذه الشعائر الحسينية هي بحق مدرسة للفضيلة، وللتضحية بالنفس، وللمقاومة الطغاة والوقوف بوجههم، لذاتجد على مر العصور أن جميع الطغاة يشتركون في خصلة واحدة، وهي معاداة ومحاربة الشعائر الحسينية، والطقوس العاشورائية، لأنها عنوان لرفض الظلم، ومحرك ذاتي للوقوف بوجه الفساد وجور الحكام، فأخذ الطغاة محاربة الشعائر ووسائل مختلفة. وقد جرت وقائع وأحداث كبيرة نتيجة ممارسة الطقوس الحسينية تارة بصورة سرية أخرى علنية تبعاً للتطورات السياسية التي كان يمر بها أتباع مدرسة أهل البيت (ع) مما عزز ربطهم بالانتماء الشيعي.

إن الحديث عن المنشأ التاريخي للعبادات المتبعة في المآتم الحسينية "مآتم عاشوراء" يقتضي أن نلقت النظر إلى أن العادة والتقليد قد تكون منطقتين من واقع اجتماعي أو سياسي بغض النظر عن منشأ أو منطلق تشريعي أو مصدر ديني، هذا في العموم وما يتعلق بعبادات عاشوراء بشكل خاص، مع ما عاناه الشيعة في التاريخ - وهم الفئة التي تحي هذه المناسبة - وقد مزوا بظروف معقدة وصعبة على مستوى العلاقة مع السلطات الحاكمة في المراحل كافة، تكشف القراءة لهذه المراحل أن بعض عادات عاشوراء لم تنشأ من



شكلت ظاهرة قوية بسبب مصداقيتها وقدرتها

المنشأ التاريخي للعبادات العاشورائية

منطلق شرعي أو مصدر ديني، وأن بعضها حظي بتأييد من الفقهاء والبعض الآخر، اختلف فيه.

نشأة المآتم الحسينية العاشورائية

يرجع تاريخ النشأة الفعلية والانطلاق الأولى للمآتم العاشورائي بداية إلى نجد أن الأمر يدور بين حالة عفوية وهي المواقف التي أظهرت حالة الحزن عبر إقامة المآتم والحداد والندب والعزاء من دون تخطيط مسبق عن قصد وتنظيم معين، وقد سجل التاريخ عدداً منها، بعضها كان فريداً وبعضها كان جماعياً. ومن الحالات الفردية أم سلمة (رض): لما بلغها مقتل الإمام الحسين (ع) قالت: "أوقد فلعوها؟" ما ل الله قيوهم نازاً، ثم بكت حتى غشي عليها. وكذلك زيد بن أرقم الذي قيل إنه كان حاضراً على فعل ابن زياد، فقال له: "مه، أرفع قضيبك عن هذه النباة، لقد رأيت رسول الله (ص) يلتمها ثم خنته العبرة، فيكي، فقال ابن زياد: مم تبكي؟ أبكي الله عينيك، والله لولا أنك شيخ قد خرفت لضربت رأسك".

أمّا الحالات الجماعية فكان منها بكاء من حضر وداع السيدة زينب (ع) لجسد الحسين (ع) في الحادي عشر من المحرم، حيث ودعت أباها بمرثية جاء في بعضها: "يا محمداه... وبناتك سايا وذريتك مقلقة، تسفى عليها الصبا"، وقد أبت كل عدو وصديق. وكذلك بكاء الهاشميات والأُنصار في المدينة: وقد وردت الأخبار الكثيرة في وصف الحالة التي آلت إليه المدينة المنورة عند رجوع ركب نساء الامام الحسين (ع) إليها. فقالوا: "عجّت نساء بني هاشم وصاحت المدينة صيحة واحدة" وقالوا: "تصارت النساء من كل ناحية، حتى ارتفعت المدينة بالرحمة التي ما

سمع يمثلها قط". وكذلك استقبال أهل مصر للبيات (ع). "فقد وردت الأخبار أن والي مصر ومن معه من أهلها عندما استقبلوها في بلبس من نواحي مصر، استقبلوها بالتعزية والبكاء، وبنحيب".

فإن العزاء وظاهرة الحزن والبكاء، برزت في أغلب ولايات ومناطق الدولة

الإسلامية على الإمام الحسين (ع) في حينها، والأمثلة التي قدمناها تدل على ذلك وإن كان بشكل عفوي غير منظم أو مقصود.

أمّا الحالة المنظمة من إقامة المآتم العاشورائية بدأت مع حركة التوابين: نشأت الطقوس ابتداءً من حركة التوابين بقيادة سليمان ابن صرد الخزاعي سنة ٦٥ هـ حيث قاموا بنوع من الاحتفالات الشعائرية الرمزية فنشأة بذلك أول حركة مقاومة للحكم الأموي رافعين شعار "يا لثارات الحسين" واعتبرت أول نواة للاحتفال بذكرى عاشوراء. حيث تم إعلان التوبة والبكاء بمقاومة الحكم الأموي. وكذلك ينقل الدكتور إبراهيم الحديدي في كتابه "تراجيديا كربلاء سوسيولوجيا الخطاب الشيعي" أن المختار الثقفي سنة ٦٦ هـ أول من أقام احتفالاً تأبينياً في داره في الكوفة بمناسبة يوم عاشوراء وأنه أرسل بعض الناديات إلى شوارع الكوفة لتندب على الإمام الحسين (ع)، كما يذكرها "ابن قتيبة" في الإمامة والسياسة.

مجالس أئمة أهل البيت (ع)

يقول السيد محسن الأمين: "إنهم - أي أئمة أهل البيت (ع) - بكوا على الحسين وعدوا مصيبته أعظم المصائب، وأمروا شيعتهم ومواليهم وأشياهم بذلك، وحثوا عليه، واستنشدوا الشعراء في رثائه، وبكوا عند سماعهم، وجعلوا يوم قتله يوم حزين وبكاء، ودموا من اتخذ عيلاً، وأمروا بترك السعي فيه في الحوائج، وعدم ادخار شيء فيه، فالأخبار فيه مستفيضه عنهم، تكاد تبلغ حد التواتر، رواها عنهم ثقات شيعتهم ومحبيهم بأسانيدنا المتصلة إليهم (ع).

البويهيون

عندما سيطر البويهيون على الحكم في بغداد شهدت تلك الفترة تحولاً جديداً في أداء الطقوس بشكل علني وفعال وجماهيري في شوارع بغداد. مما أدى إلى إشعال صراع طائفي بين السنة والشيعة. هذا وقد تم الإعلان رسمياً وعلنياً في الفترة البويهية عن

"هوية التشيع"، حيث تطورت الطقوس بشكل كبير وطافت مواكب العزاء شوارع بغداد وبصورة علنية تدعمهم السلطة، وإلى جانبها تطور الفكر والفقهاء الشيعي وظهرت كتب العلامة الشيخ المفيد، والعلامة الصدوق والشيخ الكليني والشيخ الطوسي وغيرهم من أعلام الشيعة في تلك الفترة. وهنا تحولت وتطورت الطقوس من إعلان التوبة إلى إعلان الهوية للجماعة الشيعية وتشكل كيانها بشكل واضح وصریح، وتمتيزه بطقوسها وبفقهها وفكرها وبرجالها ومعتقداتها.

في ذلك الوقت ظهرت المواكب الحسينية، وتعتبر مرادف الأئمة (ع) وزيارتها، وأضيف إليها الاحتفال بعيد الغدير وبصورة علنية، وتم إنشاء حوزة النجف الدينية على يد شيخ الطائفة الطوسي.

خلاصة القول يمكننا أن نعتبر أن النشأة العامة للمآتم الحسينية العاشورائية، كانت بأمر أو موافقة أو تأييد الأئمة (ع)، وقد مهدت العقوبة للمآتم المنظمة الهادفة، واستمرت حتى وصلتنا في العصر الحاضر.

نشأة عادات المآتم العاشورائية

إن الحديث عن العادات المتبعة التي اكتسبتها مراسم المآتم الحسينية العاشورائية (الشعر - الندب - والنواح - المواكب - القراءة وأطوارها - الظم وغيرها)

يقضي أن نبيّن العوامل التي ساهمت في ترسيخ هذه العادات وساهمت في استمرارها وتطويرها مع بيان مراحل النشوء، فالدراسات تؤكد أنه لم تنشأ في وقت ومرحلة واحدة ومعينة بل كانت تطرأ على المجالس الحسينية والمآتم العاشورائية، وفق الظروف الاجتماعية أو السياسية المحيطة بالشيعة، ويمكن أن نعبر عن ذلك "بمراحل النشأة".

مرحلة الأئمة وأهل البيت (ع)

من الواضح وفق الأمثلة التي مرت علينا حت الأئمة (ع) وأنشأوا المآتم، وأنها لم تتجاوز استخدام الشعر والرثاء بنوعيه

البويهيون
في هذه المرحلة وفي بغداد بأمر معز الدولة البويهي، نشأت عادات جديدة منها الخروج إلى الشوارع بالندب والنواح والإنشاد أي بداية تأسيس لنوع من المواكب، كما كان يفعلها عامة الناس عند فقد أحبائهم كصبيغ الوجه بالسواد ولطم الصدور والوجوه وشق الثياب، أيضاً دخلت بشكل متدرج في المآتم العاشورائي.

الفاطميون

يقول المقرئ في خطه: "انصرف خلق من الشيعة وأشياهم إلى المشهدين، قبر كلثوم ونفسه، ومعهم جماعة من فسان المغاربة ورجالهم بالنياحة والبكاء على الحسين (ع).. وقد كانت مصر لا تخلو منهم في أيام الإخشيدية والكافورية في أيام عاشوراء سنة ٣٥٠ هـ.

وهنا إشارة إلى وجود الشيعة قبل الفاطميين وإحيائهم للمآتم العاشورائي، ومع وصول الفاطميين إلى الحكم حدث تطور مهم في مراسم العزاء الحسيني، وإن تأثر المصريين بعزاء الحسين (ع) مرجعه إلى سنة ٦١ هـ حين قدوم السيدة زينب (ع).

وقد اتخذت المراسم أشكالاً تطورت من عام إلى عام منذ السنة الأولى لدخول المعز الفاطمي إلى مصر سنة ٣٦٣ هـ، وكان أكبر تطور على المآتم الحسينية وقتها بعد سنة ٥٤٨ هـ بعدما نقل رأس الحسين (ع) - على ما قيل - من مدينة عسقلان في فلسطين إلى القاهرة حيث مدفنه في المسجد المنسوب إليه اليوم..

الصفويون

سيطر الصفويون على معظم إيران وأفغانستان والعراق، وكانت عاصمتهم أصفهان في إيران، حكموا من (١٥٠٢ - ١٧٣٦ م) دخل الشاه إسماعيل الصفوي إلى بغداد في ٩١٤ هـ، وقد لقت المآتم الحسينية رعاية خاصة منهم "عندما تولى السلطة على العراق الصفويون أو غيرهم من الإيرانيين، كان الإقبال على إقامة هذه المآتم والنباحات عظيماً وكانت حرية الشيعة في إحياء الذكرى الأئمة مضمونة، وقد غالى الشيعة في إقامتها".

لقد أولى الصفويون اهتماماً كبيراً بالمآتم الحسينية وبقية مراسم العزاء باعتبارها من أنجح الطرق الشيعية العاطفية في نشر التشيع الذي بناه الصفويون، وعملوا على نشره في إيران وإعلانهم المذهب الشيعي مذهباً رسمياً للبلاد، فاستخدموا العزاء الحسيني سياسياً ودعائياً لنشر التشيع وبسط نفوذهم، وشجعوا على إقامة المآتم وزيارة العتبات المقدسة في إيران والعراق، وبنوا أموالاً طائلة في عمارة مرافد الأئمة (ع).

ولقد استحدث الصفويون منصفاً وازارياً جديداً باسم وزير الشعائر الحسينية، وقد أدخلت هذه الوزارة الكثير من العادات على مراسم المآتم الحسينية العاشورائي: مثال: التعش الرمزي والضرب بالزنجيل والأقفال، والتطير، واستخدام الآلات الموسيقية، وأطواراً جديدة في قراءة المجالس الحسينية جماعة وفرداً.

ختاماً في المآتم الحسينية تتخذ العاطفة والحماسة شكل المعرفة والشعور، ويبقى الإيمان حياً في قلوب الموالين لأهل البيت (ع). وتُحافظ مدرسة عاشوراء على دورها في كونها فكرياً بناءً وحادة تستلهم منها الدروس. المآتم إحياء لمنهج الدم والشهادة، وإبمال صوت مظلومية آل البيت (ع) إلى أسماع التاريخ..

ولهذه المآتم دور مهم في الحفاظ على ثقافة عاشوراء، وهي تنقل أقوى الصلوات عن طريق مزج العقل والمحبة والبرهان والعاطفة الذي تجسد في كربلاء. وفيها البكاء على مظلومية الإمام ومن خلالها أيضاً يفهم هدف الإمام من ثورته. فالمآتم التي تقام في البيوت، ومواكب العزاء، وهيئات الضرب بالسلاسل، وارتداء السواد، ورفع الرايات وتوزيع الماء والشربت، والعمل على إقامة مجالس الرثاء والبكاء تمثل في حقيقتها نوعاً من تجنيد طاقات الأمة في خندق الجبهة الحسينية..

لقد استقرت نهضة الإمام الحسين (ع) في الوجدان الشيعي لتتعددها إلى الوجدان الانساني العالمي، وحفظت الهوية الشيعية عند مواليهم على طول وعرض التاريخ لتوصلها إلى وقتنا الحاضر، وتستمد إلى عمق المستقبل

